ثقافة

زكي ناصيف صوت الأرض والإنسان والهوّية اللبنانيّة فيلوكاليا تحتفي بفنان تجاوز حضوره حدود الزمن

شكل زكي ناصيف مدرسة موسيقية جمعت بين الفولكلور اللبناني والروح الشرقية والعمق الانساني. ترك بصمة راسخة في التلحين والغناء والشعر ونسج ألحانه من نبض الارض ولهجة الناس، فاسهم في ترسيخ الهوية الموسيقية اللبنانية من خلال اعمال تميزت بألحانها الاصيلة وبساطتها وعمقها. لا تزال اغنياته حاضرة في الوجدان، شاهدة على ارث فني وانساني

الذكرى الـ110 لمولد زكي ناصيف.

■ لماذا اخترتم احياء الذكرى 110 لولادة زكي ناصيف في هذه الامسية، وما هي الرسالة التي اردتم ايصالها؟

□ في كل سنة، ضمن برنامج الصيف، نقوم باحياء التراث اللبناني. فمنذ بدايتنا في "فيلوكاليا" والبرنامج الصيفي يحتوي دائما على "ريبرتوار" لبناني، علما أن هناك برامج كثيرة في الجمعية. وقع الاختيار هذا العام على شخصية زكي ناصيف في مرور 110 اعوام على ولادته، فهو قدم الكثير للبلد، وكثيرون منا لا يعرفون كل اغانيه، فأردنا تسليط الضوء على هذا الامر. زكي ناصيف من الملحنين والشعراء الذين كتبوا عن لبنان بصدق، فقد جسد الهوية اللبنانية في موسيقاه وليس في شعره فقط. تجدينه يكتب نصا ولحنا عن الام فتشعرين حقيقة ان هذا النص يشبه امك، ويكتب عن الطبيعة فتشتمين رائحة لبنان في الاغنية التي يؤديها. كذلك هو متأثر جدا بالموسيقى السريانية والبيزنطية اللتين اثرتا بدورهما في الفولكلور اللبناني، لذا تشعرين في الحانه بمزيج من الروحانية، الوطنية اللبنانية، والانسانية في آن واحد. هذا "الثالوث" لديه مركب بطريقة تشبه واقع لبنان وحقيقته، ولهذا السبب موسيقاه قريبة من القلب لدى الاطفال والكبار. في الوقت نفسه، موسيقاه فيها "حنيّة" كبيرة، وقد تأثرت كثيرا بإحدى الحلقات على تلفزيون لبنان (برنامج زوار المسا)، حيث سئل عمن تأثر به في عائلته، فقال: "امي كان صوتها جميلا جدا. كنت اسمعها تغني، فأدخل اليها واجدها تغني وتبكي، فأجلس وابكي معها". هذه "الحنيّة" التي في صوته ورثها من أم كانت تغني في البيت، وتستطيعين لمس ذلك في نبرة صوته. فزكي ليس مجرد شاعر وملحن، بل هو مؤد سليم لديه غنى في روحانيته وحنيته. من هنا اردنا تكريمه عبر اعادة تقديم هذا "الريبرتوار" بتوزيع جديد يشبه العصر، لنربط هذا القديم بأسلوب يحاكي الحاضر والمستقبل ايضا عبر توزيع اوركسترالي صمم خصيصا للكورال والاوركسترا.

> **نربط القديم بالحاضر والمستقبل**

■ كيف ولدت فكرة التعاون بين "فيلوكاليا" وبرنامج زكي ناصيف في الجامعة الاميركية في بيروت؟

□ بمجرد وجود برنامج من هذا النوع وبرنامج زكي ناصيف الذي يحفظ كل ارشيفه، كان من الطبيعي ان نتواصل معهم ونستأذنهم، خاصة وانهم المؤتمنون حاليا على هذا الإرث. كان التعاون ايجابيا جدا، وتحدثت مع الدكتور نبيل ناصيف، مدير البرنامج في الجامعة الاميركية، وعبرت عن رغبتنا في تكريم زكي بهذا الحدث، فأكد دعمهم لنا في كل الظروف، وهذا ما حدث فعلا. التعاون كان ممتازا وسادته الثقة والفرح والتعاون اللوجستي، وهي ليست المرة الاولى التي نتعاون فيها معهم. فقد سبق ونظمنا امسية "صدى قصائد الحكمة المغناة" لشربل روحانا في الجامعة الاميركية. وهنا اوجه تحية لمجلس ادارة البرنامج لتميزهم، فمن الجميل ان يكون هناك تعاون مليء بالطاقة الايجابية، وهذا ما جعل الحفلة كلها تنبض بالطاقة، حتى الجمهور كان لديه طاقة مذهلة.

احتضن المدرج الروماني في زوق مكايل، أمسية استثنائية احتفاء بالذكرى 110 لولادة زكي ناصيف، بعنوان "صوت الوطن... حين يغني الجمال"، نظمتها جوقة فيلوكاليا، بالتعاون مع برنامج زكي ناصيف في الجامعة الاميركية في بيروت.

بقيادة الاخت مارانا سعد، التي جعلت من فيلوكاليا مشروعا دائما لحماية الذاكرة الموسيقية اللبنانية، صدحت الجوقة ترافقها الفرقة الموسيقية، فيما اضفت الفنانة رفقا فارس وفرقة برجا للفنون الشعبية الوانا من التراث الاصيل.

حضرت الامسية اللبنانية الاولى نعمت عون الى جانب شخصيات روحية وبلدية وثقافية وفنية وإعلامية.

"الامن العام" حاورت مؤسسة ورئيسة جمعية ومعهد فيلوكاليا الأخت مارانا سعد.

■ ما الذي يميز هذا الاحتفال عن أي امسية تكريمية سابقة لزكي ناصيف؟

□ كل جهة تضع بصمتها وروحها الخاصة. بالنسبة إلي، ما ميز هذا العمل هو حجم المشاركة النوعية، من جوقة "فيلوكاليا" التي اعتبرها قلب الحدث، الى مشاركة رفقا فارس وجو عازار من فرقة "عشتار"، فصوت رفقا يحمل شخصية لبنانية وحنية وعصبا فنيا جميلا. كذلك مشاركة فرقة "برجا" للفنون الشعبية التي اضافت ايقاع "الدبكة" الحامل للفرح والانتماء وروح الشباب، خاصة وان فرقتهم مكونة من شباب صغار السن. تشعرين بالسعادة بهذا الحضور المتنوع على المسرح بين غناء ورقص وطاقة كوريغرافية وجوقة اطفال "فيلوكاليا"، اضافة الى مشاركة زينة صالح كيالي التي كتبت كتابا عن زكي ناصيف، حيث كان لها حضور مميز مع الاطفال في عرض يروي قصة ولد في باريس يسمع عن زكي ناصيف وهي تخبره عنه. بالتالي، ترين هذا الانتقال الشفهي والتراثي على المسرح ما يعبر عن اهمية التحدث مع اطفالنا عن كبارنا لتبقى الاصالة والشعور بالتعلق والانتماء والالتزام بالمجتمع والثقافة اللبنانية، فضلا عن المؤثرات البصرية على الشاشات والاضاءة والصوت، ففي هذا العمل طاقة كبيرة من فريق عمل ضخم. أنا اعتبر أن الفن هو مجتمع صغير يعبر عن امور جميلة، اولا عن الحب والابداع وشغف الانسان الى الثقافة والفنون، في ظل وجود جمهور يتلقى، وفي امسية زكي ناصيف اخذ الجمهور هذه الطاقة وكان هو ايجابيا ايضا لا سيما من خلال الاغاني اللبنانية التي عبروا فيها عن اشتياقهم لوطن جميل فيه سلام وفرح وحرية ووطنية فقط لبنانية ولا شيء آخر.

■ حتى الشباب يبحثون عن تراثهم والماضي لأنه في فترة ما كنا نقول إن الشباب لم يعودوا يلتفتون لجيل الفنانين السابقين، الى اي مدى تغير ذلك؟

□ نحن مؤتمنون على تصوير وجه لبنان الجميل. الفنانون لديهم دور كبير جدا لأنني اؤمن بأن الفن قادر على تحويل المجتمعات. الدليل ان الكثير من السياسيين تنسى اسماءهم، لكن من المستحيل نسيان اسم فنان، فهو يظل محفورا في البال. الفن لديه قدرة على لمس قلوب الناس. ◄

المقال

"الريلز" والتراث "المغيّب"

في زمن "الريلز" ومقاطع الثواني المعدودة، تبرز الحاجة اكثر من أي وقت مضى الى تعريف الاجيال الشابة بالتراث الفني اللبناني، ليس باعتباره جزءا من الماضي فحسب، بل بوصفه ركيزة اساسية في بناء الهوية الوطنية والثقافية.

ليست القضية أن الشباب لا يستمعون الى الموسيقى، بل أن خرائط استماعهم اعيد رسمها بالكامل بفعل الخوارزميات، فبات زكي ناصيف أو نصري شمس الدين اسمين قد لا يعرفهما كثيرون ممن هم دون الثلاثين، فيما تتصدر اغنيات عابرة قوائم التريند لأيام معدودة ثم تنسى. هذا التحول ليس مجرد تغير في الذوق، بل مؤشر على قطيعة اعمق مع طبقة كاملة من الذاكرة الجماعية اللبنانية.

حين نستمع الى موشحات وديع الصافي او مسرحيات الرحابنة، فاننا نطالع وثيقة صوتية لمرحلة كاملة من تاريخ لبنان الاجتماعي والسياسي: القرية، المدينة، الهجرة، الحرب والفرح الجماعي. الفن، في هذا المعنى، سجل موازٍ للتاريخ المكتوب، لكنه اكثر قدرة على النفاذ الى الوجدان لأنه يختبر عاطفيا لا معرفيا فقط.

لقد انجبت الساحة اللبنانية اسماء صنعت نهضة ثقافية وفنية تركت اثرا تجاوز حدود لبنان. هؤلاء الفنانون لم يكتفوا بتقديم اعمال ناجحة، بل أسسوا مدارس فنية ما زالت تلهم الاجيال حتى اليوم. من هنا، فان تعريف الشباب بإرثهم الفني هو استثمار في المستقبل، لأنه يعزز شعورهم بالانتماء ويمنحهم نماذج ابداعية تستحق الاقتداء.

زكي ناصيف مزج الفولكلور القروي بالمقامات الشرقية، فأرسى ملامح "الاغنية اللبنانية" بوصفها هوية موسيقية متمايزة. عاصي ومنصور الرحباني، الى جانب فيروز، حولا الاغنية الشعبية الى مسرح غنائي متكامل، جمع بين الشعر والدراما والموسيقى في قالب لم يكن مسبوقا في المنطقة. وديع الصافي منح الجبل اللبناني صوته الاشهر، بينما جسّد نصري شمس الدين روح الاغنية الشعبية بعفويتها وقربها من الناس. فيلمون وهبة اضاف بصمة لحنية اثرت المشهد الغنائي، وصباح حملت الاغنية اللبنانية الى الجمهور العربي الواسع بصوتها وحضورها الاستثنائي. فنانون لبنانيون كثر اسهموا كل من موقعه في بناء هذا الصرح الفني.

لقد تراجع حضور هذا التراث في المناهج المدرسية والبرامج الاعلامية الى هامش ضيق، ان لم يغب كليا، إذ أن كثيرا من المؤسسات التربوية والثقافية تعاملت مع هذا الارث بوصفه "تراثا محفوظا" يستدعى في المناسبات الوطنية فقط، لا مادة حية قابلة لاعادة الاكتشاف. هذه المعادلة انتجت جيلا لا يرفض هذا الفن عن قناعة، بل يجهله لأنه لم يقدم له بلغة يفهمها.

ان تعريف الشباب بهذه القامات لا يكون عبر الكتب فقط، بل من خلال الحفلات التكريمية، واعادة توزيع اعمالهم الموسيقية بأساليب حديثة، وادخال انتاجهم الى المناهج التعليمية، وتنظيم معارض وندوات وورش عمل تعرّف بتاريخهم الفني. فحين يسمع الشاب هذه الاعمال بلغة موسيقية تناسب عصره، يكتشف أن الفن الاصيل لا يشيخ، بل يتجدد مع كل جيل.

ميرنا الشدياق

مؤسسة ورئيسة جمعية ومعهد فيلوكاليا الاخت مارانا سعد.

◄ الفن يرفع الانسان، فعندما تعملين على الكلمة باحساس وتقنيات واداء سليم، تشعرين انك والجمهور انتقلتم الى مكان أسمى. الفضل يعود ايضا الى التوزيع الموسيقي والاوركسترالي للاستاذ أياد كنعان، الذي قدم شيئا مميزا حافظ فيه على روحية زكي ناصيف بنمط جديد يحاكي الشباب مع الحفاظ على هويته. لقد كان هناك تناغم مذهل بين الكلمة واللحن والتوزيع والدبكة والكورال والرقص والشاشة، عمل جماعي متزامن ومتقن جدا.

■ كيف تم اختيار البرنامج الفني والاغنيات التي قدمت خلال هذه الامسية؟

□ عقدت اجتماعا مع الاستاذ كنعان لننتقل من "الريبرتوار" القديم الى الجديد، أي من اوائل ما لحنه الى آخر لحن وضعه قبل وفاته وهو "مهما يتجرح بلدنا". بدأنا بمقدمة موسيقية "بوليرو شرقية" تعبر عن الشرق الكلاسيكي لدى زكي ناصيف، ثم "مهما يتجرح بلدنا"، وانطلقنا في البرنامج: "من ليلتنا"، "من ليالي العمر"، "طلي طلي قبالنا"، "ع دروب الهوى" (من البوم فيروز تغني زكي ناصيف)، "بناديلك حبيبي"، و"سحرتنا البسمات". كما غنينا في ختام الحفل "في ظلام الليل اناديك مات اهلي"، وكانت تحية لاهل الجنوب الذين فقدوا الكثير من احبائهم. ثم "بلدي حبيبي"، "هلا يا ريم الفلا"، "يا عاشقة الورد"، "طلوا حبابنا"، "يا بو الميجانا"، "اشتقنا كتير يا حبايب"، "اشتقنا ع لبنان"، "رمشة عينك"، وبالطبع اغنية "راجع يتعمر لبنان" التي يصر الجمهور دائما على سماعها. يمر في البرنامج الفولكلور، القصيدة، والعصب الكلاسيكي والشرقي، كل الاساليب التي كتب بها زكي ناصيف. ورغم اننا استعرضنا الكثير في ساعة ونصف ساعة، الا ان "ريبرتوار" زكي يحتاج الى خمس او ست ساعات. ما كان مميزا جدا في الحفل هو حضور اللبنانية الاولى التي عبرت عن دعمها للابداع والشباب. لقد اذهلني تواضعها، كيف سلمت على الصغير والكبير بابتسامة ولياقة تعكس تربية المرأة اللبنانية الراقية وقربها الانساني. كما حضرت وزيرة السياحة المؤتمنة على الشق الفني والابداعي في البلد، اضافة الى اعلاميين نعتبرهم "صوت الحق" والمؤتمنين على ايصال الرسالة.

"موسيقى زكي ناصيف قريبة من القلب وهناك "حنيّة" في صوته"

كيف يحاكي الناس تأثرا بهذه الموسيقى، فأخذ الكثير من "باعوت يعقوب" و"باعوت مار افرام" وطورها في الاغنية. مثلا في اغنية "هلي يا سنابل هلي"، تجدين اسلوب "السيلابيك" (Syllabic)، وهذا تأثر مباشر باللحن السرياني حيث يخضع اللحن للكلمة. استخدم هذا الجو في موسيقاه، وبما أننا شعب مؤمن يمارس ديانته، فقد تأثر الناس بذلك لأنه خلط الديني بلحن وطوره في الاغنية، وهذا ما جعل موسيقاه اقرب للناس. نحن لسنا "عربا" بامتياز ولا "غربيين" بامتياز، نحن مزيج من الثقافات في ثقافة واحدة اسمها لبنان. موسيقاه حملت الشرق الكلاسيكي و"الصعب السهل"، فكانت "لغة الشعب" وهذا سر نجاحها، حيث يستطيع الجميع غناءها، القوي في الصوت والضعيف على حد سواء، لأن المقامات والمسافات اللحنية فيها سلسة وتحاكي لغة كل انسان. ولا تنسي انه برز في حقبة "غير سهلة"، حيث كان "الرحابنة" قد رسموا خطتهم ومدرستهم القوية مع السيدة فيروز، وديع الصافي، نصري شمس الدين، وفيلمون وهبة. ان يبرز شخص بمفرده ويصنع خطا مستقلا وناجحا في ظل تلك المدرسة، فهذا نجاح هائل وصدقية للموسيقى التي كتبها.

■ ما الدور الذي تؤديه "فيلوكاليا" في حفظ التراث واعادة تقديمه للشباب؟

□ كجمعية ومعهد، من اهدافنا الحفاظ على التراث السرياني واللبناني. من المهم جدا تعليم الشباب حب التراث، لأنهم لن يحافظوا عليه ما لم يحبوه. نحن نقدمه لهم بقالب جديد يحفزهم، تقديم هذه الموسيقى بأسلوبنا الخاص من دون المساس بجوهر الاغنية وهويتها، عبر توزيعها على اصوات مختلفة (هارموني) وكوريغرافيا جديدة. نحن نبني ذاكرة جميلة للاطفال والشباب لأنهم سيحاكون المستقبل.

■ اخبرينا عن "المنتدى الفكري" الذي اطلقتموه مؤخرا؟

□ الفكرة نشأت بعد تجربة "الصالون الادبي" الذي قدمنا فيه 18 حلقة عن ادباء مثل سعيد عقل وجبران خليل جبران ومخايل نعيمه ومي زيادة وغيرهم. شعرت ان هناك حلقة مفقودة، لا يكفي أن نتحدث عنهم، بل يجب ان نعيد بناء الفكر اللبناني. لذا فتحنا في "فيلوكاليا" مساحة حوار بين جيل الخبرة المتخصص وجيل الشباب الطموح، لكي لا تضيع الذاكرة ولا ينقطع المستقبل عن جذوره. انطلقت الفكرة مع الاستاذين هنري زغيب وسهيل مطر الذي سيتولى ادارة هذا المنتدى الذي سيكون "مختبرا فكريا" مكونا من 12 حلقة في السنة. المواضيع ستشمل: لبنان الهوية بين الذاكرة والمستقبل، التاريخ اللبناني بقراءة جديدة، لبنان والتحولات الكبرى من الماضي الى الحاضر، الفكر السياسي من التجربة الى الرؤية، حلم البناء وتحديات الواقع، الثقافة والفن كقوة تغيير... وسينتهي المنتدى بـ "وثيقة فيلوكاليا للمستقبل اللبناني". الجلسات تهدف الى اعادة الاعتبار للفن والثقافة كأدوات بناء مجتمعي وليس "ترفا". في كل حلقة سيكون هناك شعر ولحن ومؤد لبناني مرتبط بالموضوع. نحن في مجتمع نؤذي فيه بعضنا البعض كثيرا، ووسائل التواصل الاجتماعي تزيد من هذا الاذى عندما تحمل الكراهية والانقسام. نحن اليوم في حاجة الى الثقة والمحبة وبناء السلام، وهذا يتطلب اناسا روحانيين ومنفتحين. الانسان "التعبان" وغير المتصالح مع نفسه يؤذي بسهولة، لذا من المهم وجود الوعي والغفران وفتح صفحة جديدة. ما نقوم به هو نوع من "العلاج" (Therapy)، نطرح المواضيع، نتصالح معها، ثم ننطلق من جديد.

م. ش